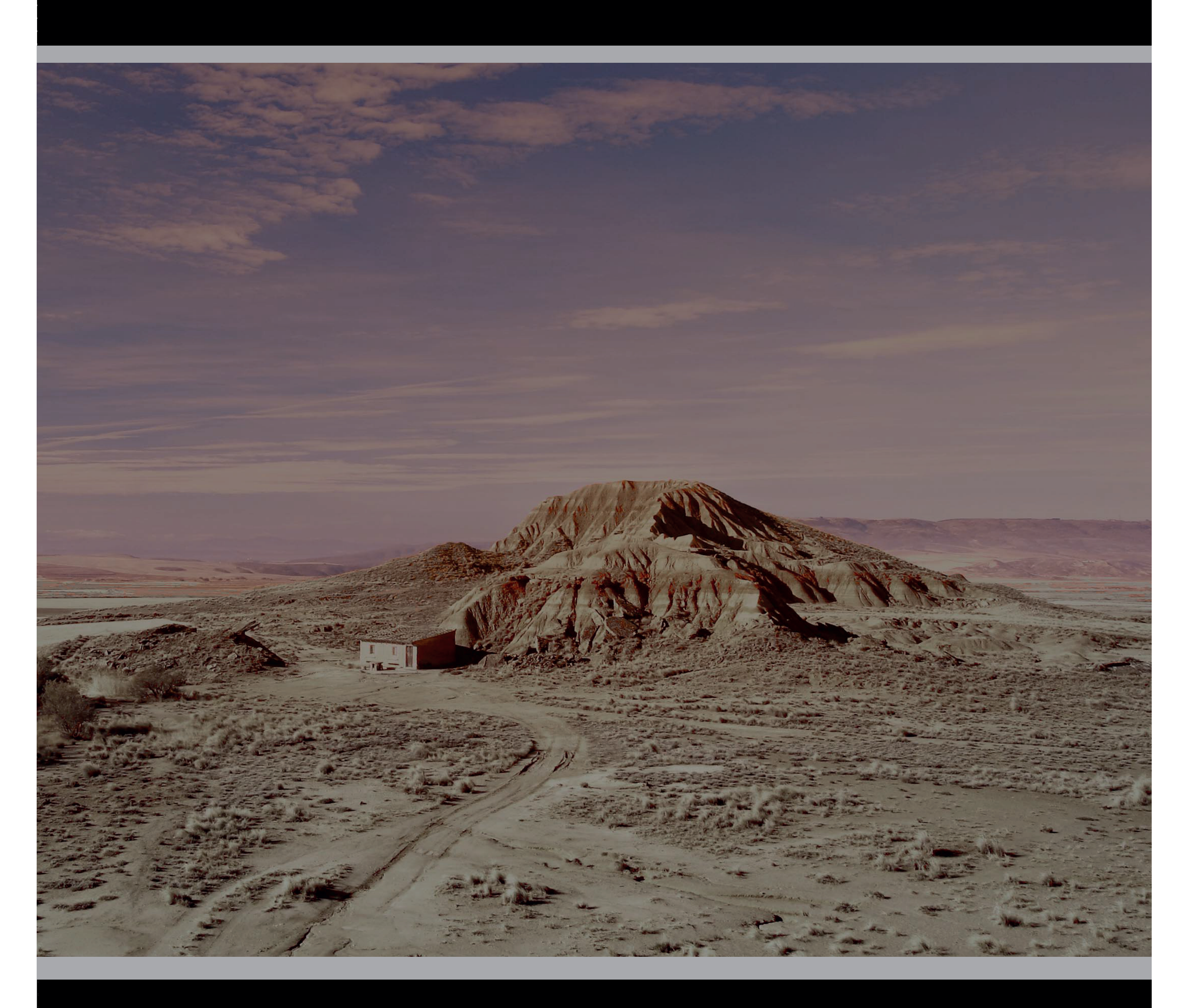
# الانتقادات الداخلية لـ «أسطورة إبراهيم»

## الروابط والتشابهات: منظور مقارن



مارسل موس
ترجمة: جميلة شرادي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

# الانتقادات الداخلية لـ «أسطورة إبراهيم»

## الروابط والتشابهات: منظور مقارن[1]

مارسل موس

ترجمة: جميلة شرادي

---

1- المقالة الأصلية:

Mauss Marcel, «Connexions et convergences Le point de vue comparatif, Critique interne de la “légende d’Abraham”.» (1926), Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay, bénévole,Dans le cadre de la collection: "Les classiques des sciences sociales". Site web: http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des sciences_sociales/index.html



لم نكن أبداً أنا والسيد هوبر Hubert[1] سجيني أسلوب النقد المفرط هذا، بعمقه العقلاني الذاتي، هذا المنهج الذي وسَّعه نقاد الإنجيل ليشمل التراث المنقول، حتى عندما كان يبدو لهم هذا التراث غير قابل للتصديق. إلا أنّه وبردّ فعل طبيعي وغريب تراجع هذا المنهج. إذ يتفق العديد من الكتاب[2] اليوم على الاعتراف بالأسس التاريخية لأجزاء مهمّة من التراث الديني، ومنها أجزاء من سفر التكوين من العهد القديم (ما بعد الجزء العاشر). إنّ أعمال كلاي A.T.Clay[3] على وجه الخصوص تذهب في الاتجاه نفسه، وحتى الأعمال الأشد انتقاداً لفاي R.Weill[4] كالافتراضات التي صاغها من بعض الوثائق المصرية عن استقرار اليهود في فلسطين هي اعتراف مبطن بهذه التاريخانية.

إنّنا لا نزعم تقديم حجج جديدة في هذا الاتجاه، بل نريد فقط أن نتفحص على ضوء المقارنات السوسيولوجية والأركيولوجية، انطلاقاً من تمثّلات تاريخية بسيطة، مدى صحة اللوحة الكلاسيكية التي رسمتها المدارس النقدية عن حياة اليهود قبل موسى، هذه المدارس المتأثرة بالعقلانية الرومانسية والمقتنعة بأنّ جدليتها اللغوية يمكن أن تعيد بناء الحقيقة التاريخية. عِبْريو ما قبل دخول مصر الذين خرجوا منها كانوا - كما يعتقد - رحّل الصحراء بدواً يتأملون إلههم الواحد الذي يتعارض مع آلاف الأصنام بالمدن. نعرف الصفحات الرومانسية الرائعة التي كتبها رينان Renan حول هذه النقطة. وMeillet عاد أيضاً إلى نقطة الانطلاق هذه[5]، في عمله الحديث حول النزعة اللغوية المحافظة عند الساميين. غير أنّه لا يوجد شيء يفتقر إلى التبرير العقلاني أكثر من هذه الفرضية التي تقول بوجود سامية صافية نقية تعيش استثناءً خارج حضارة عظيمة. لذلك نود، من خلال اختبار نقدي داخلي بسيط، تقديم الجانب الآخر من الحقائق[6].

تمرّ حياة إبراهيم بين أور الكلدانيين[7] - وهي مدينة كبيرة جداً ولد فيها إبراهيم وخرج منها - وبين حران[8] حيث يموت والده تارح Terah ([الكلمة يونانية في النص] من سبعة)، وكنعان[9] التي دخلها في سن الخامسة

---

1- Voir notre «Essai sur le sacrifice», Année sociologique, 2.

2- Lods, «La tradition orale», etc., Rev. De l'histoire des religions,.192

3- A.T.Clay, The Origins of Biblical Traditions,1923

4- «L'établissement des Israélites en Palestine», Rev. De l'histoire des religions,1923-1924 .

5- Séance Ernest Renan, Journal de psychologie,1924 .

6- لن يكون صعباً كتابة مجلد حول التعليقات العديدة المتنوعة التي كان موضوعها بعض الوثائق التي سنأتي على دراستها. الإيمان بالآخرة في الكتاب المقدّس وأسطورة البطاركة يعتبران من بين أغنى الموضوعات.

7- (: أور(Ur): وهي مسقط رأس إبراهيم التي ولد ونشأ فيها، ولكنه خرج منها إطاعة لدعوة الرب وذهب إلى حاران ومنها ذهب إلى كنعان (تك 11: 28 و31 و15: 7 ونحم 9: 7). ومكان أور اليوم خرائب تدعى المغيّر في منتصف المسافة بين بغداد والخليج العربي، وعلى مسافة عشرة أميال شرقي مجرى نهر الفرات في الزمن الحاضر. وقد احتل المدينة السومريون والعيلاميون والبابليون والكلدانيون على التوالي.

8- حران مدينة قديمة في بلاد ما بين النهرين تقع حالياً جنوب شرق تركيا عند منبع نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات، ذكرت في التوراة على أنها المدينة التي استقر فيها النبي إبراهيم بعد هجرته من أور.

9- كنعان هي الأرض التي سكنتها ذرية كنعان، وقد استولى عليها العبرانيون فيما بعد (خر 6: 4 ولا 25: 38). وكانت حدودها الأصلية مدخل حماة إلى الشمال وبادية سورية والعرب إلى الشرق وبادية العرب إلى الجنوب وساحل البحر المتوسط إلى الغرب.

كنعان هي منطقة تاريخية سامية اللغة في الشرق الأدنى القديم تشمل اليوم فلسطين ولبنان والأجزاء الغربية من الأردن وسورية.

والسبعين وتركها حاملاً كل ممتلكاته (معدات الجيش، وخاصة الخيول)، وبين آشور[10]، وذلك برفقة ابن أخيه لوط[11] وسارة[12] وغيرهما حيث ذهبوا إلى مصر، ثم عاد منها هو ولوط بثروات كبيرة (المواشي والعبيد)، غير أنّ البلد كان صغيراً جداً لم يسعهم كلهم فانقسموا. ظلّ إبراهيم يعيش في الخيام بمحيط بيت إيل وممرا[13]. في حين استقرّ لوط في «مدن السهل» (سبعة)، أو بالأحرى «في محيط» الخليل، في سدوم[14]، حيث تقول الأسطورة الأولى إنّه أسِر من طرف ملك عيلام[15]... إلخ، ليتمّ تحريره من طرف إبراهيم وعبيده الثلاثمائة وثمانية عشر، وهم عبيد «ولدوا في منزل إبراهيم». بقي لوط في سدوم التي نعرف قصتها. لكنّ إبراهيم الذي لا يقيم دائماً في الصحراء جدّد مع أبيمالك فلسطيني جرار[16]، الخدعة التي سبق أن اقترفها مع فرعون، عندما قدّم له سارة التي كانت أخته وزوجته، بصفتها أخته فقط[17]. اشترى إبراهيم في الحيثيين بالخليل حقلاً لقبره ولقبر سارة ودفع ثمناً له أربعمائة شيكل (sicles) من الفضة التي يتعامل بها الباعة المتجولون[18].

---

10- آشور (Assyria, Ashur)، اسم آشور ينطبق أيضاً على بلاد آشور (تك 2: 14) وعلى شعب آشور (أش 31: 8). وبلاد آشور الأصلية تقع في الجزء الأعلى من نهر دجلة. وكان الآشوريون مزيجاً من أجناس عدة، فقد قطن البلاد في حقب مختلفة السومريون والحوريون والميتانيون. ولكن في النهاية سادت العناصر السامية وبخاصة الأكاديون والبابليون وامتلكوا البلاد. وأولى عواصم شور هي مدينة آشور نفسها.

11- لوط هو ابن هاران وابن أخ إبراهيم. تصنفه التقاليد اليهودية المسيحية بين البطاركة.

12- هي زوجة إبراهيم وأخته غير الشقيقة وأم إسحاق أبو النبي يعقوب الذي ينحدر من نسله أنبياء بني إسرائيل.

13- بـبيت إيل: (Bétel) اسم عبري معناه «بيت الله». أول ما قدم إبراهيم أرض الميعاد، نصب خيمته في الأراضي المرتفعة قرب بيت إيل (تك 12: 8 و13: 3). أمّا موقع المدينة فإلى شرقي خط يمتد من القدس إلى نابلس على بعد واحد من كلتا المدينتين. وكانت قديماً محل إقامة ملوك الكنعانيين.

ممرا: ((Mamré)) ممسك ممرا الأمير الأموري (تك 13: 18 و18: 1 و23: 19) وهي حَبْرُون (تك 35: 27) وبجانبها كانت مغارة مكفيلة (تك 23: 17) وهي رامة الخليل التي تقع شمالي الخليل بمقدار ميل ونصف الميل.

14- الخليل (Hebron): مدينة فلسطينية، ومركز محافظة الخليل، تقع في الضفة الغربية إلى الجنوب من القدس بحوالي 35 كم. أسسها الكنعانيون في العصر البرونزي المبكر. وللخليل أهمية دينية للديانات الإبراهيمية الثلاث، حيث يتوسط المدينة المسجد الإبراهيمي الذي يحوي مقامات للأنبياء إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وزوجاتهم (عن ويكيبيديا).

وسدوم: (Sodome) إحدى مدن السهل الخمس التي أحرقتها النار التي نزلت من السماء بسبب خطيئة أهلها العظيمة (تكوين 19: 24)...اختارها لوط مدينة للسكن بعد انفصاله عن إبراهيم لمعرفته بخصب أرضها وسهولة الري فيها (تكوين 13: 10). وهاجم كدرلعومر وحلفاؤه وهزمها فأسرع إبراهيم ورجاله وردّوا الغنيمة المسلوبة (تكوين 14) ولكن لوط عاد وسكن في سدوم، وعاودت سدوم سيرتها الأولى في الشر والبعد عن الله، فأرسل الله ناراً من السماء فأحرقتها (تكوين 19). ولم ينجُ منها سوى لوط وابنتيه.

وقد صارت خطيئة سدوم مضرب الأمثال، وكذلك صار مصيرها (طالع متى 10: 15 ويهوذا 7 ورؤيا 11: 8) كما أنّ خطيئة «السدومية» أو الشذوذ الجنسي أخذت اسمها من سدوم تكوين 19: وتقع سدوم تحت الماء اليوم في جنوب البحر الميت، وتجري المحاولات لكشف مكانها.

15- نص السبعينية هنا مختلف جداً وأكثر تفصيلاً من نص سفر التكوين.

(السبعينية هي الترجمة اليونانية للعهد القديم التي أجريت في القرن الثالث قبل الميلاد. حيث يذكر أنّ بطليموس أراد أن يضم إلى مكتبة الإسكندرية الكتب المقدّسة لليهود، والبعض يرى أنه بسبب عدد اليهود الذين لايعرفون إلا العبرية قام اثنان وسبعون من الأحبار بالترجمة. ويرمز لها بعددها اللاتيني LXX أي سبعون.

- عيلام: اسم عبري من أصل أكادي معناه «مرتفعات» وهي بلاد فيما وراء دجلة، وإلى الشرق من مملكة بابل، وإلى الجنوب من مملكتي آشور وميديا، وعلى الضفة الشمالية لخليج العجم، وإلى الغرب من مملكة فارس. وكانت عاصمتها شوشان (أي شوش) ومن هنا سمي العيلاميون بالشوشانيين. وكانت عيلام مركز إمبراطورية قديمة. وكان لها دور سياسي مهم في تاريخ إمبراطوريات الشرق القديمة).

16- أبيمالك: اسم عبري ومعناه "ابو ملك" أو "الأب ملك" وقد ورد: اسماً لملك في فلسطين عاش في عصر إبراهيم. وقد جاء إبراهيم إلى بلاده ومعه سارة زوجته ولكنه قال عنها إنها أخته (تك ص 20). وفيما بعد ذلك دخل إبراهيم مع أبيمالك في عهد بشأن آبار المياه التي تخاصم عليها رجالهما مع بعضهم البعض، وبناء على هذا العهد سمي ذلك المكان بئر سبع (تك ص 21) وهو ملك جرار.

17- سارة عند فرعون *Gen.*XII,11sq. سارة عند أبيمالك جرار *Gen.XX,12*sq. وتتكرر القصة نفسها عن إسحق ورفقة (ريبيكا) وعن أبيمالك. سارة شقيقة والد إبراهيم وليست شقيقة أمه، ريبيكا ابنة عم جرمانية من قِبل الآباء، وأيضاً شقيقة الأب.

18- Gen. XXIII, 16: oberlasoher.

وأرسل -فيما بعد- عبده المخلص ومعه الهدايا والمجوهرات الفاخرة ليأتي برِفقة[19]، وهي ابنة ناحور أخي إبراهيم من زواج أبناء العمومة الموازية، وكانت تعيش في مدينة ببلاد الرافدين. أسطورة إسحاق ويعقوب ويوسف تحدث بالشكل نفسه - في وسط المصريين والفلسطينيين والحيثيين وبلاد الرافدين، من مدينة إلى أخرى. ولا ينفَد الحـديث عن الثروات التي كان البطاركة[20] ينقلونها مثل مئة شيكل[21] من مذبح شكيم[22] والثروات التي نهبوها في وقت لاحق من هذه المدينة.

نحن نعلم أنّ هذا لم يكن شيكل الفضة بالتسمية التي كانت متداولة في الخليل وفي شكيم. حيث لم يشرع في ضرب هذه النقود إلا في وقت لاحـق بعد ذلك بكثيـر.

ويجب أن نعتبر كثيراً ما يقوله «المحررون»: لقد خلطوا كثيراً بين المراحل التاريخية، إلا أنه ربما ليس بالقدر الذي نظن، فلربما حافظوا على التراث أكثر ممّا قيل. ومن منظور النقد الداخلي ليس هناك ما هو غير قابل للتصديق في كلّ هذا.

الوسط الذي تصوِّره الأسطورة هو بالتأكيد ذلك الذي تَطوّر فيه المجتمع الذي اتخذ إسرائيل اسماً له، حتى قبل أن «يَعْبُر» الأردن. متى؟ مسألة التاريخ ليست مهمة. فأن نجعل إبراهيم معاصراً لهذه السلالة أو تلك من بلاد الرافدين أو من مصر، أو أن نتراجع به نحو الوراء لنَنْسِبه إلى السلالات الأسطورية التي تدخل - تبعاً للاستكشافات الحالية- في تاريخ كيش[23] وأور ببلاد الرافدين على وجه التحديد، أو أن يتم النزول به إلى نهاية عصر الإمبراطورية الوسطى، أو أن تحمل المجموعة التي يقودها اسميه المتعاقبين، أو أن تسافر كل المجموعات التي قادها أبناؤه وأحفاده - وإن كانت أسطورية- في الوسط نفسه، وتعيش في الإطار نفسه، كل ذلك صادق تماماً.

يشكل أسلاف إسرائيل عائلات كبيرة متعددة مثل العشائر. رئيسهم يشبه أميراً راعياً ومحارباً يرافقه خدامه المنحدرون من عبيده. يقود الرئيس وأبناؤه وعبيده مواشيهم نحو المراعي الضرورية. لكنهم، في الوقت نفسه، يجوبون المدن. وعند خروجهم منها يذهبون من مدينة إلى أخرى. حيث يدخلون المدن مجدداً، فيحتفظون فيها بأفراد من أسرتهم، ليُقيموا هم في محيطها أو في مواقع جيدة على الطرق والممرات. فهم حلفاء أو ضيوف ملوك الحيثيين والفلسطينيين والمصريين وغيرهم، ويحاربون لأجلهم بصفتهم مرتزقة أو

---

19- رفقة أو ريبيكا ((Rébecca)) اسم عبري ربما كان معناه «رباط، أو حبل قيد»، وهي ابنة بتوئيل وأخت لابان Laban (تك 24: 15 و29) لما كبر إسحق كلف أبوه أحد خدامه ليبحث له عن زوجة من بين فتيات عشيرته فذهب الخادم وإذ طلب إرشاد الله وفقه لاختيار رفقة فتزوجت إسحق(تك 24) وبعد زواجها بنحو عشرين سنة ولدت يعقوب وعيسو: 1-18: 5).

20- يشير المصطلح إلى البطاركة الثلاثة الآباء المؤسسين للشعب اليهودي، كما ورد في سفر التكوين. وهم إبراهيم وإسحق ويعقوب.

21- شيكل: أو شاقل ((sicles)) مشتق من الفعل العبراني «شقل»، «ثقل» ومعناه كما في العربية وزن، وأهم اسم عيار لوزن الأشياء الثمينة وغيرها، ونوع من النقود الذهب والفضة غير المسكوكة (تك 23: 15 و16). وكانت جميع العيارات والنقود تحسب بالنسبة إليه.

22- شكيم: اسم عبري معناه «كتف» أو «منكب». وهي مدينة لها سور (تك 33: 18 و34 و20)، عند سفح جبل جرزيم (قض 9: 7) على أرض افرايم المرتفعة (يش 20: 7)، بلدة قديمة. خيم بالقرب منها إبراهيم (تك 12: 6)، وكان الكنعانيون يسكنون فيها... شكيم أو «نابلس» وهو اسمها الحالي، تبعد 5, 31 ميلاً شمالي القدس 5، 5 ميلاً جنوب شرقي السامرة، وهي تقع في الوادي الأعلى المحاط بجبل عيبال من الشمال، وجبل جرزيم من الجنوب. وهي تقع في الوادي المنحصر بينهما.

23- كيش، وهي المعروفة الآن بتل الأحيمر، هي منطقة أثرية في العراق، وتبعد عن مدينة بابل حوالي 12 كلم شرقاً، وتبعد عن العاصمة بغداد 80 كلم جنوباً.




خاضعين لهم. وسيقاتلون فيما بعد بصفتهم سادة مجهزين بالخيول والجمال، كما أنهم تجار وقواد قوافل مثل الرحل والطوارق[24]في عصرنا. المنطقة الجغرافية شاسعة جداً، ولكن تحيط بها المدن التي تأسست بدون شك في بداية الألفية الثالثة والألفية الرابعة. وتزايدت في الألفية الثالثة في الشمال والجنوب والشرق. في الداخل، على المراعي الغنية شيدت الأسر السلالية الكبيرة النشيطة قبائل وعشائر، وزودت مجتمعات معينة هنا وهناك بالقادة والأسلاف.

توسع الأسطورة عمل أسلاف إسرائيل من الجزيرة العربية إلى جنوب أرمينيا ومحيط مصر وبلاد الرافدين. حيث سبق لأبناء عمومتهم - أبناء حورس والأكديين[25]- أن غزوا هذه البلدان. وقد تورط هؤلاء البطاركة في جميع أنواع الأعمال والمصالح السياسية والمادية، يمكن أن نقول عنها إنّها أعمال مالية[26].

إنّنا بعيدون جداً عن واقع كونهم متوحشين كما تمثّلهم Mac Lennan، أو وقحين كما استوعبهم Renan. علاوة على ذلك، ففي رأينا، منذ دخول أسلاف إسرائيل التاريخ، ومنذ نشأة اللغة السامية المقروءة الأكثر قدماً، بل منذ الأصل السلالي الذي يمكن إعادة بنائه، كل شيء في الحضارة السامية يتسم بمستوى عالٍ جداً من التقدم. المفردات التقنية الغنية، والاستعمال النسبي للكلمات الذي سوف يصل إلى حد ثلاثي الحروف ويتوقف، والبساطة القصوى لقواعد لغوية ضئيلة وغير بدائية. إنّها تكشف على الميدان - من عيلام إلى جبيل ومن جبيل إلى أبيدوس[27]- عن كونها واحدة من أقدم اللغات غنى بالأشياء وبالناس وبالحضارة. إذ ما تزال تزخر بأطلال أبدية، فالساميون، بمن فيهم أولئك الذين عاشوا في الخيام، كانوا دائماً متحضرين.

هل يعني هذا أنهم لم يحتفظوا في الوقت نفسه على آثار مهمة من أحوالهم الاجتماعية السابقة؟ لقد كانوا محافظين إلى أقصى الحدود في كل شيء كما هو الحال في اللغة.

ليس فقط تبعاً للاكتشاف الجيد الذي قامت به السيدة B.Seligman، بخصوص كون عدد من القبائل الحالية السامية[28] - أو بالأحرى قبائل منطقة دجلة على وجه الخصوص التي تحولت إلى السامية في وقت

---

24- الطوارق: الشعب الذي يستوطن الصحراء الكبرى، في جنوب الجزائر، وأزواد شمال مالي، وشمال النيجر، وجنوب غرب ليبيا، وشمال بوركينا فاسو. والطوارق مسلمون سنيون مالكيون، ويتحدثون اللغة الطارقية بلهجاتها الثلاث تماجق وتماشق وتماهق.

25- حورس هو إله الشمس عند قدماء المصريين. أمّا الأكديون فينتسبون إلى الإمبراطورية الأكدية، وهي إمبراطورية تمركزت في مدينة أكاد، تقع مدينة أكاد على الضفة الغربية لنهر الفرات بين زمبير وكيش، في العراق 50 كم جنوب غرب مركز بغداد.

26 - ننصح بقراءة عمل M.Goldstein الذي نشر معظمه في Globus من 1908إلى 1914، حول إثنوغرافيا العبريين، وقراءة فصول رائعة لـ: E.Meyer, Histoire de lAntiquité, §320sq.

27- عيلام، اسم عبري من أصل أكادي معناه "مرتفعات" وهو بلاد فيما وراء دجلة، وإلى الشرق من مملكة بابل، وإلى الجنوب من مملكتي آشور وميديا، وعلى الضفة الشمالية لخليج العجم، وإلى الغرب من مملكة فارس. وكانت عاصمتها شوشان (أي شوش) ومن هنا سمي العيلاميون بالشوشانيين. وكانت عيلام مركز إمبراطورية قديمة. وكان لها دور سياسي مهم في تاريخ إمبراطوريات الشرق القديمة.

- جبيل: مدينة فينيقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمال بيروت على بعد 20 ميلاً منها وعلى بعد 42 ميلاً من صيدون، وسكانها هم الجبيليون. وكانت تسمى قديماً عند اليونان ببلوس، وأمّا عند العرب الآن فتسمّى جبيل، وقد تكون تصغير كلمة جبل. كانت تابعة لمصر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

- أبيدوس كانت إحدى المدن القديمة بمصر العليا. يجمع معظم علماء الآثار على أنّها عاصمة مصر الأولى في نهاية عصر ما قبل الأسر والأسر الأربع الأولى، ويرجع تاريخها إل خمسة آلاف سنة. وتقع بين أسيوط والأقصر بالقرب من قنا. وكانت مدينة مقدسة أطلق عليها الأغريق تنيس. وحالياً يطلق عليها العرابة المدفونة بـ (البلينا) وتبعد عن النيل نحو 11 كيلومتر/ (عن ويكيبيديا).

28- Studies on Semitic Kinship (London School of Oriental Studies), vol.Ill, vol.IV.




مبكر جدا - قد حافظت على جدول قرابة تصنيفية، وهي سمة لِبدائية لا يمكن إنكارها (حيث يتم تصنيف الآباء في مجموعات، وليس بشكل فردي) - وليس فقط لأنّ آثاراً هامة ما زالت باقية في هذا الجدول التصنيفي في جميع اللغات السامية وفي معظم القواعد المنظمة للعلاقات وللحياة الاجتماعية: على سبيل المثال، نتذكر أنّ لوط هو أخ لإبراهيم، كما أنّ مليكة هي أخته، مثلما تعتبر رِفقة أختاً لإسحاق- وإنما لكوننا يمكن أن نتخيل أيضاً بشكل كافٍ، من خلال هذا النوع من الأشعار المثقفة التي هي أسطورة البطاركة، ملامح أخرى لحياة هي بالأحرى بدائية، وأيضاً ملامح حياة حضرية طويلة لم تتحلل طبيعتها بفعل جوارها للمدن، خاصة وأنّ حياتها الرعوية[29] مصورة بوضوح في التراث الشفوي وفي التراث الكتابي فيما بعد.

العبريون - قبل دخولهم الأسطوري الثاني أو الأول إلى مصر، بل وبعد خروجهم الأسطوري منها أيضاً - كانوا رعاة مثل أبناء عمومتهم من مؤاب وأدوم[30]. ذلك أنّ هذا النوع من العيش الرعوي يعتبر، عند كل هذه الشعوب، أكثر من مجرد مهنة، إنّه شبيه بالعقيدة. حيث جعل العبريون منه قاعدة ومذهباً أخلاقياً. إنّه أَنَفة وسمو لديهم، فهم يحتقرون الأطعمة الأخرى، التي مصدرها صيد عيسو[31]، والد جيرانهم، يكرهون الزواحف ومعظم الأسماك، ويصونون الحليب واللحم من كل اختلاط أو اتصال نجِس حتى في بطونهم. لقد تم البحث عن بقايا الطوطمية في أسماء راحيل[32] الذي يعني الشاة، ولِيا[33] الذي يعني البقرة الصغيرة، وهما

29- حتى السومريون، مؤسسو كيش، ما زالوا يتصورون أنفسهم رعاة: تشهد اللوحات الجميلة النحاسية التطبيقية والمنصات المحفورة التي تمثل الأبقار وأيضاً الشخصيات في طور الحلب، إلخ (من الألفية الثالثة على الأقل).

30- موآب: اسم سامي ربما كان معناه «مَن أبوه؟» وهو اسم للموآبيين (عد 22: 3-14 و2 مل 1: 1 و48: 4 وهلم جرا).

موآب هو ابن ابنة لوط الكبرى، وقد حبلت به من أبيها بعد تدمير سدوم، ودعت اسمه «موآب» أي «من الآب» وهو رأس الموآبيين.

سكن الموآبيون الهضبة الواقعة في شرقي البحر الميت، والتي ترتفع نحو 4.500 قدم فوق مستوى سطح البحر الميت الذي كان يشكل حدودها الغربية. كان يحدها من الشرق الصحراء العربية، ومن الجنوب وادي زارد (وادي الحصى حالياً)، ومن الجنوب أرض أدوم. أمّا حد بلاد موآب الشمالي فكان يتغير من وقت إلى آخر من نهر أرنون إلى ما وراءه شمالاً، حسب قوتها الحربية ووضعها السياسي. فكان طولها من الشمال إلى الجنوب يتراوح ما بين 35 إلى 60 ميلاً، أمّا عرضها من الشرق إلى الغرب فكان نحو 25 ميلاٍ. وكانت الهضبة خصبة جيدة الري، تنمو بها محاصيل وافرة من الحنطة والكروم التي كانت أساس ازدهار موآب، علاوة على تربية الأغنام على مراعيها الجيدة.

أدوم: (edom): معنى الاسم «أحمر». وقد ورد هذا الاسم فيما يأتي: لقب عيسو بن إسحاق لأنه كان أحمر عند ولادته (تك 25: 25) ولأنه باع بكوريته لأجل طعام أحمر اللون (تك 25: 30.) الأدوميون هم نسل عيسو أو أدوم (تك 36: 1- 19) وقد ذكر الأدوميون في سجلات مصر في عصر الأسرة الثانية عشرة التي حكمت من سنة 2000 إلى سنة 1788ق.م. وقد طرد عيسو ونسله الحوريين من أرض أدوم وسكنوا في موضعهم (تثنية 2: 12) وكان حكام آدوم، في البداية، أمراء يشبهون رؤساء القبائل (انظر تك 36: 15- 19) ولكنهم أصبحوا فيما بعد، وقبل قيام مملكة إسرائيل يلقبون بالملوك (تك 36: 31- 39)

31- عيسو، اسم عبري معناه "شعر" أو "مُشعِر"، وهو ابن إسحق ورفقة (Rebekah)، وتوأم يعقوب.

32- راحيل (Rachel): اسم عبري معناه «شاة» (تك 29: 6). ابنة لابان الصغرى وكانت حسنة المنظر فأحبها يعقوب للنظرة الأولى عندما رآها عند البئر بالقرب من حاران إذ كانت تسقي غنم أبيها لابان. وقد خدمه يعقوب سبع سنين لأجل راحيل فخدعه لابان وأعطاه ليئة. ثم خدمه يعقوب لأجل راحيل سبع سنين أخرى. وراحيل هي أم يوسف وبنيامين وماتت عند ولادة بنيامين.

33- لِيَا أو ليئة اسم عبري معناه "بقرة وحشية" وهي ابنة لابان Laban الكبرى. وقد كانت أقل جمالاً من أختها الصغرى راحيل لأنّ عينيها كانتا ضعيفتين. ونحيلة زوّجها أبوها من يعقوب Jacob بعد أن كان هذا قد خدم سبع سنين لأجل راحيل Rachel. ولدت له ستة بنين هم: رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون، وابنة اسمها دينة. ثم ماتت ليئة بعدما ذهب يعقوب إلى مصر (تك 49: 31) وكانت ليئة تعرف أنّ يعقوب يحب راحيل أكثر منها (تك 29: 16-35 و30: 1-35). ومع ذلك كانت تحبه محبة شديدة.

اسمان لأمّي إسرائيل ويهوذا[34] وبنيامين[35]. وكان طبيعياً أن يُعثر فيها ببساطة على أسماء الرعاة وطقوس الحيوانات التي يربونها. لا نعرف العبادات كاملة أو حتى الطقوس الإيجابية التي كانت هذه الحيوانات موضوعاً لها من طرف القبائل[36]. لا نعلم سوى استخدام لحومها ودمها في الأضحية، واستعمال قرونها على المذبح وقواعد الذبح، أمّا عبادة البقر فليست مؤكدة. لكننا على علم جيد بالعبادة السلبية - التي كانت الحيوانات موضوعاً لها- وبشكل خاص المحرمات القوية: مثل المبدأ الشهير: «لا تطبخ الخروف الصغير في حليب أمه». مقطع طويل لِميمونيد[37] طُبع مع تعليقات Munk يستحق أن يذكر هنا: فحسبَ تقاليد سبَئية قديمة - يدرك ميمونيد وجودها لكنه لا يستطيع العثور على النص- سيكون عرف أو دين إسرائيل متعارضاً مع عرف نصف الوثنيين من مؤاب وأدوم، الذين لا يهابون الإساءة إلى النعجة الأم بقتل خروفها في اليوم نفسه الذي تواجدت فيه عند أولئك الذين تم عندهم غلي اللحوم في حليب الماشية. يبدو لي هذا التفسير القديم حقيقياً. وفي الجزء الذي قدم أيضاً: ستقوم إسرائيل بخيار مقصود، حيث أرادت أن تميز نفسها عن أولئك الذين يعبدون آلهة أخرى وعن قساوسة أصول تقِلّ عنها شهرة ونقاوة. مؤسسات من هذا النوع توجد في مجموعة كبيرة لمجتمعات حالية نشِطة وغنية، يمكن أن نقارن معها عِبْريّي ما قبل الاستقرار النهائي لداود في مدينة اليبوسيين[38].

من دجلة والحبشة إلى أوغندا تنتشر هنا مجتمعات سامية، وهناك مجتمعات اللغات الحامية (غالا وغيرها)، وبعيداً مجتمعات مختلطة من الغاليين ونيل-التشاديين، وبعيداً مجتمعات أخرى مختلطة أيضاً من نيل-التشاديين والبانتويون[39].وتعتبر هاتان المجموعتان الأخيرتان تجسيداً ممتازاً لنوع من التنظيم

34- يهوذا بن يعقوب: اسم عبري معناه «حمد» وهو رابع أبناء يعقوب من ليئة، وولد في ما بين النهرين (تك 29: 35). وأعطي هذا الاسم لسبب شكر أمه عند ولادته. ولا يذكر العهد القديم كثيراً عنه، ولكنه يذكر بعض حقائق هامة تتعلق به. فقد نال رضى والده وحبه، وحصل على بركته مع أنه أصغر من رأوبين، وشمعون ولاوي (تك 49: 8). وكان شهماً، وقد تجلى كرم أخلاقه مرتين في قصة يوسف (تك 37: 26 الخ و44: -16 34). وكان كفيلاً لأخيه بنيامين (تك 43: 3-10). وبعد رجوعه إلى كنعان انحدر إلى مصر مع بنيه الثلاثة (تك 46: 12). وقد ولد له من ثامار أرملة ابنه ابنان آخران هما فارص وزارح. ومما هو جدير بالذكر أنّ فارص أصبح أحد أسلاف داود والمسيح (مت 1: 3-16)

35- من المعترف به عموماً أنّ «إسرائيل» اسم اصطناعي. راجع المادة: «إسرائيل» في موسوعة:

Encyclopaedi aBiblica .Cheyne آخر عمل بشأن هذه المسألة يعود لـ:

Sachse: «De rUrsprungdes Namens Israël», Zeitschr .f. Semitistik, IV, p.63,69 , contre Gaspari, Zeitschr. f.Alttest. Wiss., 1914, etc.

علاوة على ذلك، في الفترة نفسها، يغير أيضاً إبراهيم وسارة أسماءهما. شخصياً، لا أرى أي صعوبة لغوية لقبول الاشتقاق اللغوي Is-Rahel، وأنا لا أرى الصعوبة إلا في حقيقة أنّ أطفال راحيل هم يوسف وبنيامين، وليس إسرائيل. ولكن هذه التغييرات في الأسماء من الانقسام القبلي إلى القبيلة، ومن القبيلة إلى الأمة ثم من الأمة إلى قسم فرعي للأمة تعد أمراً طبيعياً، بل غالباً ما تكون أفضل العلامات على الأحداث التاريخية.

من الممكن أن يخفي كل هذا حقباً ماضية بعيدة جداً وغامضة. وفي كل الأحوال مظهر انقسام أحفاد يعقوب واضح جداً من طريقة تعبير الأسطورة، فأبناء «ليا». وأبناء راحيل يعيشون على جانبي نهر الأردن، في أراضي المراعي الخاصة بالأغنام وأراضي المراعي الخاصة بالأبقار.

36- VoirGen., XXX, XXXVII, sq.,rite des verges; cf .XXXI,10 .

37- Guide de ségarés, Munk,II, pp .398,399.

نعلم أن d’OnkelosTargoum صاغت مسبقاً هذا المبدأ في شكله العام وليس في شكله الضيق المقتصر على الأغنام، وأنّ Philon في كتابه (Decharitate) اعتبر عرف مؤاب مرعباً.

38- مدينة اليبوسيين: اسم القدس في عهد اليبوسيين (يش 15: 63 وقض 19: 10 و1 أخبار 11: 4)، وهم قبيلة كنعانية سكنت يبوس أو القدس والجبال التي حولها.

39- لا نعرف إلا القليل عن المجتمعات المختلطة للحاميين والبانتوين. (بانتيون (Bantous) هم مجموعة من المجموعات العرقية التي تعيش في جنوب قارة أفريقيا. يتكلمون لغات البانتو وينتشرون من البحيرات العظمى الأفريقية في الشمال إلى سواحل رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا.

الاجتماعي نقترح بالتأكيد تسميته بالمجموعات المركبة[40] وهي التي أثارت غالباً لفت الانتباه إليها. إنّها عادة مركبة من عدة أجناس أو مجموعات اجتماعية التحم بعضها ببعض. وكانت المجتمعات من هذا النوع كثيرة جداً في العصور القديمة، فمعظم الجماهير في الهند كانت هكذا، بل إنّ الهند نفسها ما تزال من هذا النوع. كنعان كانت - بِعبريها وحيثيّيها وفينيقيّيها وفلسطينيّيها ومصريّيها - منطقة استيطان مختلطة إلى أقصى حد، [41]وكانت إسرائيل على وجه التحديد دائماً - وربما باستثناء يهوذا بعد اختفاء اليبوسيين- إحدى تلك المجتمعات التي تتحمل أن تكون تابعة، أو أن تكون مجموعات اجتماعية أخرى مختلفة تابعة لها. وسوريا وفلسطين ما تزال مجتمعات مختلطة على هذا النحو، وسوف يستغرق الأمر وقتاً قبل أن تشكل أمّة. ولكن، لنعد مرّة أخرى لأفارقتنا.

عدد كبير جداً من الشعوب الحامية ما تزال تعيش بالطريقة التي عاشت بها إسرائيل، فهي في الوقت ذاته قائدة قوافل ومزارعة وراعية ومحاربة وتحتقر الأرض في كثير من الأحيان. أفرادها أبناء نبلاء من جنس نبيل، لديهم أنفة قطعانهم وخيولهم وإبلهم وأنفة النظام الغذائي وعبادة اللحوم والحليب[42]، لكن تشبهها المجتمعات المركبة الحامية والزنجية بجنوب إثيوبيا والمجتمعات المركبة النيل ـ اتشادية والبانتوية[43]والماساي[44] وناندي وغيرها، وأخيراً وبالخصوص، تلك التي توجد في شمال وغرب أوغندا، والتي ليست عناصرها بانتوية حيث تعيش نسبياً، في رأينا، كما عاشت إسرائيل بين الشعوب التي لم يكن لديها العهد نفسه الذي كان لإسرائيل مع إلهها. كل نوع من أنواع التركيبات الاجتماعية تلتحم. هنا عنصر البانتوي مندمج تقريباً: فالماساي مثلاً لم يغيروا في شيء طبيعة واندوروبو (Wandorobo) الذين ظلوا مزارعين أو حرفيين. وفي مكان آخر جماهير البانتو هي التي أدمجت الغزاة (الباجندا). عموماً، ليس عنصر البانتو من الرعاة في هذه المناطق، إنما يحتفظ أو لديه، بشكل استثنائي، الحق أيضاً في الاحتفاظ ببعض الأبقار أو الماعز. وبما أنّه عنصر مستقر، فهو يسكن في المدن، عنصر كبير منه في أنيورو وبدقة في أوغندا ورواندا، يطلق عليه غالباً اسم باهيرا (Ba-Hera) أي الأقنان. سكان باهوما على العكس من ذلك، رعاة نبلاء: يجوبون البلاد يوفرون للأسرة الحاكمة الحريم من الفتيات والأنصار للصراعات الداخلية والموظفين لإدارة الإقطاعيات. ينقسمون إلى مناطق يرأسها إقطاعيون غالباً ما يكونون منافسين للملك.

---

40- Voir Année sociologique, nouvelle série, 1, sous Roscoe.

41 - تأكد هذا جيداً بفضل نتائج الحفريات بجبيل وبيسان. وبيسان من أقدم مدن فلسطين التاريخية. تقع اليوم في لواء الشمال الإسرائيلي على بعد 83 كم شمال شرق القدس. بيسان في قلب مرج بيسان الذي يصل غور الأردن بمرج ابن عامر، جنوب شرق مدينة الناصرة، وإلى الشرق من مدينة جنين الفلسطينية، وإلى الغرب من مدينة أم قيس الأردنية ونهر الأردن.

42 - فيما يتعلق بالطوارق ونيل- التشاديين المعربين، انظر: Goldstein in Globus, 1912

43 - بالنسبة إلى توسع كل عبادات الحليب في أفريقيا بين البانتو الرعاة . انظر بالخصوص:

Viur Frazer, Folklore de l'AncienTestament (Abrégé), p.322 et suiv. avec de nombreux faits baganda,etc.

«Hottentos» الهوتونتو شعب رعوي يوجد جنوب أفريقيا. كان أفراده يسمون أنفسهم في السابق (Khoikhoi: «الرجال») وذلك ليميزوا أنفسهم عن جيرانهم من شعب بوشمن (Bochimans) الذي يعيش على الصيد والقطف في صحراء كالهاري التي تتوزع بين بتسوانا وناميبيا وجنوب أفريقيا، وتشير الدلائل إلى أنّ مجموعات البوشمن عاشت في مناطق جنوب أفريقيا منذ حوالي 22 ألف عام مما يجعلهم من أقدم المجموعات العرقية إن لم تكن الأقدم على الإطلاق في أفريقيا/ عن ويكيبيديا).

44- شعب الماساي هم مجموعة عرقية نيلية وهم شبه رحل يتمركزون في كينيا وشمال تنزانيا، من بين الجماعات العرقية الأفريقية المعروفة، بسبب العادات واللباس المميز والإقامة بالقرب من الحدائق الكثيرة في شرق أفريقيا .عن ويكيبيديا.



في عرض لـ M.Roscoe[45] وصف ممتاز لكل هذا. فالمحكمة وحدها مستقرة، أمّا العائلة الحاكمة فما تزال تتحرك إلى حد ما. الرؤساء يشبهون الدوقات أو ممثليهم، يشبهون الرهائن والمدّعين العامّين، ويحلُّون محل بعضهم البعض بحذر وتقدير. قطعان الرئيس الكبير والملك تنقسم تبعاً لألوانها: وهكذا فالماعز الأرقط والحِمْلان الحمراء مِلْك لِلابان وليعقوب[46]. وعلى الرغم من كون مناطق الرعاة محددة[47]، فالمالِكون يمتلكون حقاً شبه عام للحراك عبر ربوع البلاد كلها.

هكذا وُصِفت بدقة شديدة حياة باهوما (انْكولِيو بانياكول[48]وكيتارا الباكيتارا[49])، فهم لا يتزوجون إلا فيما بينهم. وتوقفهم عن الرعي يعني - بالنسبة إليهم - الحط من مكانتهم الاجتماعية. عدد الأطعمة التي يأكلونها بالخصوص خارج الحليب قليل جداً. وقد كان يمنع - في السابق- على الأقنان امتلاك الماشية واستهلاك منتجات الألبان إلا في ظل ظروف معينة.

هكذا عاشت إسرائيل بالتأكيد، حيث بدأت بين بلاد الرافدين ومصر، ثم حصرت تحركاتها بين مصر وكنعان إلى حد قيامها بمثل ما كان يقوم به ملوك رواندا و«انْيورو»، وإلى حد إقامة كهنتها وقضاتها وأخيراً ملوكها في المدن[50]. إنّ التشابه بين هذه المورفولوجية الاجتماعية ومورفولوجية العِبريين عميق.

ليس ذاك هو التشابه الوحيد، فلهذه القبائل الغازية كجيرانها - الذين لم يدخلوا في تركيبة مع آخرين- عبادة واضحة جداً لهذا الحليب. يشبِّهها Sir James G. Frazer مثلنا بطقوس السمان والعجاف. وسنعثر في هذه الصفحات على العديد من الحقائق[51] يعد التماثل بينها مشروعاً تماماً، علاوة على أنّ هذا التماثل ليس معزولاً. غير أنّ Sir James Frazer أخطأ تماماً عندما أقصى بسرعة كبيرة التقليد الذي رأينا مَيمونيد يردّده. فهذه الجهود المبذولة من طرف قبيلة أو عشيرة أو أمّة لتميّز نفسها عن أخرى تُعدّ أمراً طبيعياً. وهي سمة إضافية من التشابه القائم بين مختلف فروع الأصل السامي من مؤاب إلى إسرائيل /والعشائر الرعوية المختلفة أو «باهوما» من «انْكول» ومن «انْيورو». هذه العشائر الأخيرة تميز نفسها عن بعضها البعض على وجه التحديد من حيث لونُ ماشيتها والمحرماتُ التي تثير اهتماماً كبيراً عند بعضها، مثل الأبقار ذات العلامة الحمراء عند بعضها، والأبقار ذات القرون القصيرة عند البعض الآخر، والبقرة حديثة العهد بالولادة عند بعضها الآخر، وعند أخريات ألسنة الأبقار، ... إلخ[52]. وبناء على ذلك، يتوجّب على العشيرة الحاكمة «انْكول» ألا تأكل الدّخن (mil) إلا في ظروف معينة مقارنة مع الحليب، ولكن، وعلاوة على ذلك، لا يجب

45- Roscoe, Bakitara, Banyankolé, Bagesu, IIIvol. (Mackie Expedition), 1922-1923

46- Gen., XXX, 31sq.

47- Banyankolé, pp.15 et 16.

48- انكوليون من سكان البانتو في أفريقية الشرقية يعيشون في جنوب غرب أوغندا. مملكة انكول القديمة هي أراضهم.

49- باكيتارا Bakitara، وكيتارا Kitara، من انْيورو وهم من سكان البانتو بأفريقية الشرقية يعيشون في وسط غرب أوغندا لغتهم هي انْيورو، وهي لغة البانتو.

50- M.Sulzberger, The Status of Labour in Ancient lsraël, Dropsie College, 1923,

أظهرت بوضوح كيف كان العبريون يتعارضون بصفتهم سادة مع الأقنان المستقرين المستعمَرين.

51- Cf .Abrégé du Folklore de l’Ancien Testament, loc.cit.;cf .Année sociologique 11, p.190;12, p.145.

52- Cf. l’interdiction du tendon, Gen .XXXII, 32. Bakitara, pp.14 et16, Banyankolé, p.5sq.




على واحدة من فروعها أن تضيف شيئاً إلى ما يجري طبخه، إذ يجب أن تطبخ كل شيء على حدة، إلا في الحالة التي يقوم فيها الطهي على جمع كل عناصره منذ البداية[53].

توجد قواعد بارزة تنظيمية أخرى متماثلة، فالقاعدة التي جعلت إبراهيم يتزوج شقيقة والده وجعلت أيضاً إسحاق يتزوج رِفقة التي تحمل في الجدول التصنيفي الصفة نفسها، وهي شقيقة الأب، لها نظيرتها هنا: فالملك موغابي كيتارا تزوج حتماً أخته غير الشقيقة، أمّا أخت الأم، فعلى العكس من ذلك، تلعب دوراً مختلفاً جداً[54].

لا يمكن حصر التشابهات فيما تبقى، لدرجة أنّ M. Merker اعتقد أنّ شعب الماساي، قد تأثر ببعض اليهود[55].

لن نسعى إلى محاولة تمثّل الأسباب التاريخية لهذا التشابه الغريب، فوحدة فروع الحامية والسامية من العرق الأبيض قد تمّ الشروع في تقبلها. لا توجد أيضاً صعوبة كبيرة في الاعتراف بوجود تأثيرات بعيدة، ولا في الاعتقاد بأنّ الظروف المعيشية المتشابهة تنتج آثاراً مماثلة. نستنتج ببساطة ما يلي: هذه الوقائع الراهنة تثبت صدق وجود عدد من العناصر سميت في تاريخ البطاركة بالأسطورية. إذ ما تزال هناك مجتمعات سامية تعيش على الطريقة التي عاشت بها إسرائيل. وما تزال هناك مجتمعات مجاورة غير سامية، فروعها تعيش بالكيفية التي عاشت بها إسرائيل بين الأجناس الأخرى وبين الساميين نصف- الوثنيين.

هناك شيء آخر علينا أن نستنتجه: المذاهب القديمة الرومانسية حول بدائية الرعاة وتبعيتهم لشعوب المزارعين يجب أن يلقى بها في خندق الأفكار التاريخية المسبقة التي عفا عليها الدهر. فشعوب الرعاة لعبت دوراً كبيراً إلى أقصى حد ابتداء من نهاية العصر الحجري الحديث، وكانت في الكثير من الأحيان أقوى من الشعوب المستقرة، إذ غالباً ما هيمنت استراتيجياً على مدن وحقول الشعوب القارة، وهزمتها ليس بالقوة فقط، ولكن من حيث الثروة والتجارة والصناعة أيضاً.

53- استخدم لفظ muziro من طرف Roscoe، ويعني منْع العشيرة، وترجمته هنا بقليل من المبالغة، بـ «الطوطم».

54- Bakitara, p.152; Banyankolé, p.58.

55- Voir discussion de Merker, Masaï, dans Année sociologique, 9.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569
الهاتف : +212 537 77 99 54
الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com
www.mominoun.com